

وصف من اتبع الهوى

* لقد ذهب الله تعالى في كتابه العزيز من يتبوع الهوى وعابهم على ذلك الاتباع. يقول الله -تعالى- { وَكَانُوا مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَسْدُ فُؤَادٍ مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجَنَّهُمْ فَلَا تَأْصِرَ أَهْلَكَنَّهُمْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ رُبَّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَابْتَغُوا أَهْوَاءَهُمْ } [محمد: 13, 14]. فالقرية التي أخرجته هي مكة . * وبخبر -سيحانه تعالى- بأن هناك قرى قد أهلتهم الله لما كذبوا، ويخبر بالسب، وهو أنهن زين لهم سوء أعمالهم، وابتغوا أهواهم؛ فأعمالهم السيئة هي: الكفر، والكذب والتکذیب بالرسل، ورد ما جاءوا به، وكل ذلك فيه اتباع للأهواء.* وقد زين للبعض سوء عمله، وابتغوا أهواهم، وقد أخبر الله -تعالى- بذم مثل هذا قوله: { أَفَقَنْ رُبَّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضْلِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَدْهُبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } [فاطر: 8]. * فالذين يتبعون الهوى، لا شك أنهم قد استحسنوا العمل السيئ، وابتغوا، واستيقعوا الصالحات وتركوها، فصار الحسن عندهم قبيحاً، والقبح عندهم حسناً؛ فكانوا بذلك هالكين. * ولا بد أن زين لهم الأعمال السيئة، وابتغوا في ذلك أهواهم. * وقد أخبر الله -تعالى- بأنهم لا يستثنون مع غيرهم، يقول - تعالى- { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا حَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِّيَا وَلَئِنَكَ الَّذِينَ طَعَنُ اللَّهَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَابْتَغُوا أَهْوَاءَهُمْ } [محمد: 16]. * فدم الله الذين اتبعوا أهواهم في هذه الآية؛ لأنهم لا يستفيدون مما يسمعون، ولا يتأنثرون بموعظة، ولا يعون أو يعقلون ما يرشدون به. * وذكر -تعالى- أنهم يستمعون القرآن الذي هو غاية في الإعجاز والبلاغة والبيان، ولكن يحال بينهم وبين فهمه وعقله؛ فكأنهم لا يسمعون العلم؛ فكانوا بذلك ميرشدون به. * فذكرا يرشدون به، فإذا خرجوا بعد سماعه يقولون لمن أتي العلم: { مَاذَا قَالَ أَنِّيَا } [محمد: 16]. كأنهم ما سمعوا. * ما الذي حال بينهم وبين ماذراهم مع أن الكلام صحيح؟! ومع كونهم عرباً ويفهمون ويعقلون؟ * إن الذي حال بينهم وبين ذلك ما ذكره الله عنهم أنهم اتبعوا أهواهم؛ لأن الله -تعالى- طبع على قلوبهم، وطمس على معرفتهم حيث اتبعوا أهواهم، فلم يستفيدوا. فإذا رأيت الذين يهربون من مجالس الذكر فقل: إنهم اتبعوا أهواهم. * وإذا رأيت الذي يستمعون ولكن لا يستفيدوا، فقل: هؤلاء من الذين اتبعوا أهواهم، بل من الذين طبع الله على قلوبهم وابتغوا أهواهم؛ حيث طمس معرفتهم التي وهبت لهم، فكانوا بذلك مثل ما ذكر الله عن المنافقين: { صُمُّ بُكُمْ عُمُّي قَهْمٌ لَا يَرِجُحُونَ } [البقرة: 18]. معلوم أن لهم أسماء، ولكن لا ينفعهم ما يسمعون، ولهم أبصار، ولكن لا ينفعهم ما يقرءون أو ينظرون، ولهم عقول، ولكن لا ينفعهم ما يتعلمون. * هؤلاء هم نصيب النار الذين أعدهم الله لها، كما ذكرهم في قوله -تعالى- { وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِهِمْ كُثُرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْأَنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَقْعُدُهُنَّ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أَوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [الأعراف: 179]. * فهذا وصف الذين اتبعوا أهواهم، يستمعون ولا يفهمون، يقرءون ولا يعتبرون، يعقلون ولا يتأنثرون، لم تنفعهم قلوبهم، وكذلك أبصارهم وأسماعهم، لم يستفيدوا بها. * يقول بعض المتأخرین في وصف من اتبعوا الهوى: "صم ولو سمعوا، بكم ولو نطقوا، عمي ولو نظروا...!! عموا عن الحق، صموا عن تدبره! ولكن ما الذي أعمهم؟! الهوى! ما الذي أصمهم؟! الهوى!" ورد في بعض الآثار: "الهوى يعمي ويصم": لما أنهم صار هواهم مخالفًا لما جاء به الشرع.. أصم أذانهم، وأعمى أبصارهم، وأصبحوا كأنهم لا يستفيدون من حواسهم التي منحهم الله إليها. * وقد وصف الله الكافرین بقوله: { وَمَنْ لَكُنَّ أَكْفَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَنْ يَعْقِلُ مَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمُّي قَهْمٌ لَا يَعْقِلُونَ } [البقرة: 171]. * يقول المفسرون: إن الله ضرب هذا المثل للكفار الذين حيل بينهم وبين فهم الحق، وابتغوا شهواتهم وميلهم، فضرب لهم مثلاً يمن ينادي بهائم، كفمن ونحوها؛ فالمعنى هو نداء الغنم، والأغنام لا تدرى ما تقول، ولكنها تسمع الصوت فتنتزع ذلك الصوت. * وهذا مثل العصابة والطاغية، الذين يدعون إلى الحق فلا يقبلونه، ولا يتقبلونه! كذلك يدعون إلى الإيمان فيكفرون! * يُبَيِّن لهم الحق فلا يقبلونه، ولا يرضون بموعظة، ولا يقبلون إرشاداً، ولا يتأنثرون بتذكرة، حال بينهم وبين ذلك كله اتباع أهواهم، بسبب ميلهم إلى الشهوات والمحرامات. * ولقد ذكر الله -تعالى- أن الهوى من جملة المعبودات التي تُعبد، قال -تعالى- { أَفَرَأَيْتَ مِنَ الْأَنْجَانَةَ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَحَتَّمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاؤَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية: 23]. * أول أعماله أنه اتخذ إلهه هواه: فهو لا يهوى شيئاً إلا ركبته، كلما متنه نفسه بشيء لم يفك هل هو خير أم شر؟ هل هو طاعة أم معصية؟ بل يقدم عليه ويقتله، ولو كان ذنبنا كبيراً أو صغيراً. * ومثل هذا قد ضل وهو على علم ومعرفة ولكنه لم يقبل الخير؛ فاصبح من الصالحين، بحيث أنه لا يقبل الإرشاد، ولا يقبل التذكرة، بل إذا سمعه يبتعد عنه، وعن الطريق التي توصل الخير إلى قلبه. * وقد وصفه الله في آية أخرى بقوله - تعالى- { وَإِذَا تَلَنَّ عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَى مُسْكِنِرَا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَانَ فِي أَذْيَهِ وَقَرَا } [لقمان: 7]. ما الذي حمله على ذلك؟! * إذا سمع القرآن والمواعظ، وإذا مر بأهل مسجد أو مدرسة لا يترکه هواه بأن يجلس عندهم، بل يصد وبعرض؛ ويکاد أن يصم أذنيه مخافة أن يدخل عليه شيء يفسد عليه ميله وشهوته وهوه، { كَانَ فِي أَذْيَهِ وَقَرَا } أي: ثغلاً، لا يستفيد، ولا يسمع ما يفيده. * هذا وصف الذين يتبعون أهواهم، ومن جملتهم المتشيرون الذين صدهم الهوى عن قبول رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- لذلك أعرضوا عنه، كما ذكر الله -تعالى- عنهم: { قَاعِرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي أَذْانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حَجَابٌ فَاقْعُدْ إِنَّا عَامِلُونَ } [فصلت: 4, 5]. انظر كيف وصفوا أنفسهم بهذه الأوصاف، اعتبرافاً منهم!! * لقد صدهم الهوى عما يدعوه إليه النبي -صلى الله عليه وسلم-. فكان قلوبهم في أغطية لا يصل إليها الخير، ولا تتقبل الدعوة. { وَفِي أَذْانِهِمْ وَقَرَا } [الأنعام: 25] اعتبرفوا بأنهم لا يسمعون، وكان في آذانهم وقرأ، ومن بيننا وبينك حجاب، يعني حاجز منيع يحجز كلامك عنا، ولا تتتفع به. * وهذا كما وقع في الأولين فإنه يقع في المتأخرین. فالذين ابتعدوا عن الخير وأهله هم الذين اتبعوا ما تهواه أنفسهم وما تمبل إليه، والذين يميلون إلى الظن وابتاع الهوى أقوالهم وأفعالهم ناتجة عن ذلك. * يقول -تعالى- { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمِّونَ الْمَلَائِكَةَ سَسْمِيَةَ الْأَنْجَانَةِ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ يَسْبِعُونَ إِلَى الظَّنِّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُعْنِي مِنَ الْحَقِّ سَيِّئًا } [النجم: 27, 28]. * وهذا ذكرهم في قوله -تعالى- { الْكُمُ الْدَّكُرُ وَلِلْأَنْجَانَةِ تِلْكَ أَدَأْ قِسْمَةً ضَيْرَى إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَيَّنُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاوْكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَسْبِعُونَ إِلَى الظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْجَانَسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهَدَى } [النجم: 21-23]. فالظن وابتاعهم ما تهواه أنفسهم هو الذي أوقعهم في الكفر والمعاصي.. وهذا نتيجة اتباع الهوى. * ولأجل ذلك ذكر الله -تعالى- أن الهوى معبد في موضعين من القرآن في سورة الفرقان في قوله -تعالى- { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا } الفرقان: 43 وفي سورة الحجية قوله -تعالى- { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَحَتَّمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاؤَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الحج: 23]. ففي هذين الموضعين ذكر الله -تعالى- أن الهوى إلى الله، وتأنثله معناه تقديس القلوب وتعظيمها له. وقد ذكرنا أن العلماء فسروا ذلك بأنه لا يهوى شيئاً إلا ركبته، وأنه ورد في الآية: "ما تحت أديم السماء إله يعبد أشد من هو مُتع". * فابتاع الهوى، والميل النفسي هو الذي يؤدي إلى ما نراه كثيراً مما هو واقع من كثير من الناس في هذه الأزمة! * فالذين يصدون عن الخير وعن مجاليسه اتبعوا أهواهم، والذين يبغضون الجلسات الصالحين، وبالغون جلسات الشر والفسقة والعصابة.. هؤلاء من اتبعوا أهواهم وابتغوا الشهوات.. * وهم في هذا لا ينظرون إلى تلك الشهوات من حيث تحريمها أو إياحتها، فجرتهم تلك الشهوات إلى الحرمان؛ ولا شك أن ذلك نتيجة اتباعهم أهواهم، ولو كان شرًا.